علم مقارنة الأديان

نشأته.. ظهوره.. أبرز من كتب فيه

الدّين ضرورة حياتية يطبع الإنسان بل يسير حركة حياته ونمائه وفق قواعده، والتدين موقف أساسي من مواقف القيّم الإنسانية، بل من أعظمها والتي لا مندوحة له إلاّ به.

فنجد عبر الحقبة التاريخية للإنسان أنّه لا يوجد قوم عاشوا دون أن يتدينوا بديـن أو ينقادوا إلى رسوم وطقوس، لذلك فالفكرة الدينية منتشرة بين جميع الشعوب والأقوام البدائية أو المتحضرة، كالبابليين (بعل وعشتار) والسومريين (انـوو انليل) والفرس (امورامزدا) والهنود (برهما، سيفا، بوذا…) ولهذا ذكر مؤرخو الحضارات وتاريخ الأديان: أنّ الدّين من العوامل التي سيطرت على البشر وأنّ التحسّس الدّيني من الخواص اللازمة لطبائعنا الرّاسخة، ومن المستحيل أن نتصوّر ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى أذهاننا فكرة الدّين.([[1]](#footnote-1))

أمّا إذا رجعنا إلى نظرة الكتب السماوية (التوراة، الإنجيل، القرآن) فأنّها تؤكد على هذه الحقيقة السرمدية. فإنّ القرآن يؤكد أنّ الإنسان أول ما خلق خلق لدافع ديني ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭼ ([[2]](#footnote-2)).

من هذا تعيّن على الفكر الإنساني الاهتمام بظاهرة (الدّين) وجعله من المعارف الأساسية لدراسته في إطار العلوم حتى ظهر كعلم مستقل بمنهجه واهتماماته العلمية كباقي العلوم.

**ظهور علم تاريخ الاديان:**

إنّ بداية ظهور علم مقارنة الأديان تظهر من خلال اهتمام الإنسان بالآخرين ومعتقداتهم بدافع دينه أو دوافع أخرى ذاتية معرفية، لكن الملاحظ عند مؤرخي الأديان أنّهم تضاربوا حول البدايات الأولى والتي مهدت لظهور هذا العلم. ويمكن القول أنّ تاريخ الدّيانات هو علم جديد، ونعني بعلم الدّيانات الدراسة الموضوعية لمختلف الأديان، أصلها، نموها في الزمان والمكان ونستخلص أنّه علم نسبي وجديد فقد سجل لنا علماء تاريخ الأديان بعض البدايات التي أفرزها الفكر اليوناني القديم.([[3]](#footnote-3))

فقد تعرض الفلاسفة اليونانيون بكل حرية للمشاكل الكبرى التي جلبت اهتماماتهم كأصل العالم، العلاقة الإلهية بالعدالة، مصير الأرواح بعد الموت، وعليه كانت هذه هي بداية النقد الذي تطور أكثر عند الفلاسفة ومن ثمّ ظهرت عدّة مناهج تفسيرية للأديان([[4]](#footnote-4)).

ثمّ تلتها بعض التطوّرات حتى ظهر آخر الأديان السماوية (الإسلام) الذي أعطى هذا العلم حقه في الظهور واستشراف طرقه ومناهجه، فقد جاءت إشارات قرآنية ساعدت علماء الإسلام في العصور الزاهرة للحضارة الإسلامية أن يظهروا هذا العلم، فأوجبت احترام أي دين سماوي واحترام معتنقيه عكس مابدى عند المسيحيين، في القرن السادس عشر والسابع عشر([[5]](#footnote-5)).

وقد أعطى الإسلام لليهود والنصارى وضعاً متميّزاً في التعامل والعلاقات ﭽﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭼ ([[6]](#footnote-6)).

كما أنّه أباح مؤاكلة أهل الكتاب ومصاهرتهم والتزوج من نسائهم ويكون لهذه الزوجة الكتابية القيام بفروض عبادتها والذهاب إلى معبدها أو كنيستها لممارسة شعائر دينها ﭽ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﭼ ([[7]](#footnote-7)).

لهذا ظهر علم تاريخ الأديان أو علم الملل والنحل والذي انبثق عنه من بعد (علم مقارنة الأديان) بمنهجيته السمحاء وبعده الإنساني والعالمي على عكس الأديان الأخرى التي كانت تعتبر أي دين ضلالاً وبدعة، فإذا نظرنا إلى موقف اليهودية من المسيحية والمسيح فهي تعتبرها ضلالاً بل اعتبرت المسيح (عليه السلام) ضمن المسحاء الكاذبين.. ([[8]](#footnote-8))

فقد ذكر بعض المستشرقين: "… أن تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى وهو التسامح الذي لم يسمح مثله في العصور الوسطى سببا في أنّ الحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى هو علم مقارنة الملل"([[9]](#footnote-9)).

بل اهتم المسلمون أيضاً بدراسة الأديان غير السماوية ، والتي اعتنوا بها وبمعتقداتها وما أفرزته من أطر اجتماعية وثقافية، فكانت دراستهم من أهم ما أنتجه الفكر الإنساني وقتها، حتى أن كتب علم الكلام لا تخلوا من دراسة ومناقشة هذه الأديان (كالثانوية) المناوية المزدكية ، الهندوسية (البرهمية) ، البوذية ([[10]](#footnote-10)).

وهذا العلم كما يبدوا من المؤلفات التي تركها المسلمون الأوائل، علم قديم، وفي هذا يقول الشهرستاني أحد أساطين هذا العلم: (أعلم أنّ العرب في الجاهلية كانت على ثلاثة أنواع من العلوم: أحدهما، علم الأنساب والتواريخ والأديان). ([[11]](#footnote-11))

وفي هذا إشارة واضحة إلى أهمية هذا العلم وقدمه عند المسلمين.وأهميته تكمن في أنّ جلّ علماء المسلمين قد خصصوا له مبحثا خاصا حتى ولو لم يكونوا مختصين فيه.

كما أنّه برز فيه عدّة أساطين يستحقون تسمية لكل واحد (عالم الأديان)، فنذكر من هؤلاء: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (479 –548هـ) الذي يعد من أشهر علماء تاريخ الأديان عند المسلمين وأكثرهم موضوعية، فهو صاحب الكتاب المعروف باسم (الملل والنحل)، الذي يعد بحق أهم عمل في تاريخ الأديان عند المسلمين بسبب التزام صاحبه بمنهج علمي وموضوعي في دراسة الأديان والفرق وبأسلوب وصفي تحليلي، كما يتضح عليه أنّه سعى لوجود منهج علمي لدراسة الأديان والفرق بعيداً عن الأهداف الدفاعية والمؤثرات الخارجية، وكذلك كتاب (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم رحمه الله.

ولعل أهم ما يميّز عمله في تاريخ الأديان تلك النظرة المنهجية الواضحة التي بدأ بها دراسته وذكرها في الصفحات الأولى من الملل والنحل وتقوم هذه النظرة على خمس مقدمات رتبها على النحو التالي:

1- بيان تقسيم أهل العالم جملة.

2- بيان قانون يبني عليه تعداد الفرق الإسلامية

3- بيان أوّل شبهة وقعت في الخليقة.

4- بيان أوّل شبهة وقعت في الملّة الإسلامية وكيفية تشعبها ومصدرها ومظاهرها.

5- بيان السبب الرئيسي الذي أوجب ترتيب هذا الكتاب على طريق الحساب. ([[12]](#footnote-12))

والمحلل لهذه المقدمات المنهجية الخمس يدرك أنّ هناك تصوراً منهجياً كاملاً لدى الشهرستاني جعله أساساً لدراسته الشهيرة ويتضح من خلال المقدمة الأولى إدراكه لاختلاف الأديان وانقسامها نظراً لاختلاف أهل العلم وانقسامهم إلى شعوب وجماعات.

كما يتضح لدارس الملل والنحل القيمة العلمية لهذا المؤلف في حقل علم تاريخ الأديان، فقد عالج فيه مشاكل منهجية، منها مشاكل تخص المقارنة بين الأديان والفرق ووسائل تفسير الظاهرة الدينية وكلّها من جوهر المنهج الحديث لعلم مقارنة الأديان.

كما أنّ القرآن الكريم يعتبر، أوّل من أعطى الإرهاص الحقيقي والإشارات الأولى في تناول الأديان الأخرى بمنهجية محكّمة وقد أعطى لدارس الأديان والناقد أشكالاً متعدّدة في النقد أعطى وسائل كثيرة لمعرفة ماهو صحيح ومتغير في الأديان.

فبيانه لموقفه من التوراة (الأسفار الموسوية الخمس) نرى أنّه استعمل وسائل لم تكن معروفة ( ولا نعجب إذا عرفنا أنّ معظم المصطلحات النقدية القرآنية ووسائل التغيير النصي… أصبحت من مقومات المنهج النقدي للتوراة الذي تبناه علماء نقد الكتاب المقدس (العهدين القديم والجديد) منذ القرن التاسع عشر الميلادي) ([[13]](#footnote-13)).

فهذا العلم اجتمعت أسباب ظهوره من إشارات قرآنية وتوسع رقعة الأرض الإسلامية ودخول الأمم المختلفة في الدّين الإسلامي وببعده العالمي والإنساني فكان من العلوم الأساسية لدى المسلمين الأوائل في عصورهم الحضارية المزهرة، إذ كان ضمن مباحث علم الكلام والفلسفة حتى انفصل بمنهجه.

فعلم تاريخ الأديان أو علم مقارنة الأديان يعد من العلوم الأساسية في التراث الإسلامي وأن لم يلق العناية الكافية في عصورنا المتأخرة من الدارسين المسلمين.

فهذا العلم الذي عرفه الغرب في القرن التاسع عشر الميلادي هو من ابتكار البيئة الإسلامية في القرون الأولى للحضارة الإسلامية ويعد هذا العلم آخر ما وصلت إليه العقلية المنهجية الإسلامية في دراسة الدّين.

يظهر جلياً أنّ الفكر الإسلامي هو السبّاق لهذا العلم ولكن بعد ضعف المسلمين واستسلامهم لأدبيات التخلف اتّجه الفكر الغربي نحو هذا العلم مبرزه من جديد، فأصبحت كبريات الجامعات الغربية كجامعة (شيكاغو) التي فتح فيها قسم خاص سمي (الأديان المقارنة) سنة1893 م، وجامعة (مانشستر) سنة1904م ، وجامعة (السربون) فقد قرر البرلمان الفرنسي سنة 1885م فتح قسم سمي (علم الأديان)، كما فتح أوّل كرسي لعلم الأديان في ألمانيا (برلين) سنة 1910م. وقد فتح كذلك بإيطاليا أوّل كرسي لعلم الأديان بجامعة ميلانو سنة 1912([[14]](#footnote-14)).

1. () ينظر: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي: جيب، ترجمة، عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت باريس الطبعة الثانية 1989، ص:12. [↑](#footnote-ref-1)
2. () سورة الذاريات، الآية 56. [↑](#footnote-ref-2)
3. () علم مقارنة الأديان النشأة والتطور والأهمية: يسري عبد الغني عبد الله، باحث ومحاضر في الدراسات العربية والإسلام، مقالة منشورة في شبكة المعلومات الدولية، بتاريخ الأحد, 19/أبريل/ 2009م ، منتديات الأصيل الشامل (www.alassil.hostwq.net). [↑](#footnote-ref-3)
4. () Sous la direction de Maurice brillant et René Aigrain, histoire de religions, Tome 01, bloud et gay, France, p.113-114. [↑](#footnote-ref-4)
5. () Alfred. Loisy, leçon d’ouverture du cours d’histoire des religions au collège de France, Emile nourry, paris, 1909,p.06. [↑](#footnote-ref-5)
6. () سورة العنكبون، الآية 46. [↑](#footnote-ref-6)
7. () سورة المائدة، الآية6. [↑](#footnote-ref-7)
8. () دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة: محمد خليفة حسن أحمد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، 1985، ص:127. [↑](#footnote-ref-8)
9. () الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم ميتز، ترجمة، محمد الهادي أبوا ريدة، الدار التونسية للنشر، تونسن المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1986، ج1: ص: 342-343.. [↑](#footnote-ref-9)
10. () Guy Monnot, islam et religions, éditions Maisonneuve et larose, paris 1986, pp, 38-44.

    ينظر كذلك إلى ببليوغرافيا التي وضعها المؤلف للكتابات التي درست الأديان غير السماوية:   
    ص 49-79. [↑](#footnote-ref-10)
11. () الملل والنحل: محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مكتبة السلام العالمية، القاهرة: 1/ 9-10. [↑](#footnote-ref-11)
12. () ينظر: دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة ص:128. [↑](#footnote-ref-12)
13. () ينظر: علاقة الإسلام باليهودية (رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية) : محمد خليفة حسن أحمد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، 1988ص: 68-69. [↑](#footnote-ref-13)
14. () Le grand Atlas des religions, Hansch weizer.éditions du cerfs, paris,1997. pp.30-35.

    وينظر: دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، ص:128. [↑](#footnote-ref-14)